نقد الصهيونية في كتابات المثقفين اليهود الفرنسيين

أ.د. أحمد رضوان شرف الدين
قسم التاريخ، جامعة الجزائر2

Criticizing Zionism in the writings of the French Jewish intellectuals

Dr. Ahmed Redouane CHARFEDDINE
History department- University of Algiers2

Abstract
This paper was written in the midst of the campaign which followed the publication of a poem written by the German writer Günter Grass (Noble prize winner) in April 2012, in which he denounced his government's support to the policy pursued by Israel against Iran over the past years. This ad hoc European media event, confirmed once again, the status of "exceptionalism" of the state of Israel in international relations.
Many intellectuals, especially Jews, attest today that this "exceptionalism" is one of the essential foundations of the Zionist ideology, whether at the time of the birth of Israel as a Jewish writer B. Lazarus (1894) has written, or after the Israeli state has made of ethnic cleansing a state policy. This is stipulated by certain works of the "new historians" Jews including Sand (2008). The State of Israel has responded to the first Intifada by the reactivation of the policy of ethnic cleansing that it led since 1948.

Keywords:
Palestine, Jewish writers, the exceptionalism of Israel, the Zionist ideology.

Critique du sionisme dans les écrits des intellectuels juifs français

Pr. Ahmed Redouane CHERFEDDINE
Département d'histoire, université Alger2

Résumé
Cet article fait suite à la campagne médiatique qui a ciblé le grand poète allemand G. Grass (lauréat de prix Nobel), auteur d'un poème publié début avril 2012, dans lequel il dénonce l'appui du gouvernement de son pays à la politique menée par Israël contre l'Iran durant ces dernières années.
Le caractère ponctuel de ce déchaînement médiatique européen qui a touché cette fois-ci le poète G. Grass, confirme si besoin est, le statut «d'exceptionnalisme dont a toujours jouit l'Etat d'Israël au niveau des relations internationales. De nombreux intellectuels, plus particulièrement juifs, attestent aujourd'hui que cet «exceptionnalisme» constitue l'un des fondements essentiels de l'idéologie sioniste que ce soit au moment de la naissance d'Israël comme l'a écrit l'écrivain juif B. Lazare (1894), ou après que l'Etat israélien ai fait de la purification ethnique une politique d'Etat. C'est ce que stipulent certains ouvrages des «nouveaux historiens» juifs dont celui de Sand (2008). L'Etat d'Israël a répondu à la première intifadha, par la réactivation de la politique de purification ethnique qu'il mène depuis 1948.

Mots clés:
Palestine, les écrivains juifs, l'idéologie sioniste, l'exceptionnalisme d'Israël.

ISSN : 2170-1431: ردمد * تاريخ القبول : فيفري 2013 * تاريخ الإيداع : أكتوبر 2012

ملخص

أعدّ هذا البحث في خضم الحملة الإعلامية المناهضة للكاتب الألماني الكبير غراس (حائز على جائزة نوبل) عقب نشره مطلع ابريل 2012 قصيدة يفضح فيها موقف حكومة بلاده من الحملة المعادية التي تقودها إسرائيل ضدّ إيران منذ سنوات. بصرف النظر عن طابعها الظرفي، أثبتت مرة أخرى الضجة الإعلامية التي استهدفت هذه المرة الشاعر غراس والتي كسحت بلدان أوروبا، المكانة "الاستثنائية" التي حظيت بها دوما دولة إسرائيل على مستوى العلاقات الدوّليّة. لقد أثبت عدد من المثقفين اليهود على وجه الخصوص أن هذه "الاستثنائية"، هي ركن رئيسي من أركان الإيديولوجية الصهيونية سواء كان ذلك لحظة نشأتها مثلما جاء على لسان المؤلف اليهودي لازار (1894)أو بعد تحوّلها إلى سياسة دولة للتطهير العرقي كما جاء في عدة مراجع لمؤرخين إسرائيليين حديثي العهد، مثلا ساند (2008). ردت دولة إسرائيل على الانتفاضة الفلسطينية الأولى، بتفعيل سياسة التطهير العرقي التي مارستها منذ 1948.

الكلمات الدالة: فلسطين، الأدباء اليهود، الاستثنائية الإسرائيلية، الأيديولوجية الصهيونية

مقدمة

نشر الأديب الألماني قنتر غراس[1] قصيدة بعنوان **"ما يجب قوله"** أدان فيها تهديدات إسرائيل لإيران وتواطؤ نظام الحكم الألماني معها، فتعرض لحملة إعلامية واسعة من الشتائم والاتهامات. مثل هذا الحدث، الذي يقع من حين لآخر، يذكرنا بأن لإسرائيل منزلة غير عادية في الغرب وبأن القوى ذات المصلحة في بقاء هذه المنزلة لا تتردد عن الدفاع عنها ضد أي شخص، مهما علا شأنه في مجتمعه، أو أي مؤسسة، مهما كبر وزنها التمثيلي في بلدها أو في العالم: ألم يتم إجبار الأمم المتحدة نفسها على إلغاء قرارها المتضمن مساواة الصهيونية بالعنصرية...لكن لردود الفعل هذه دلالة أخرى، في نفس الوقت،مفادها أن هذا الوضع الشاذ في العلاقات الدولية يتعرض لمقاومة متجددة شهدنا مؤخرا أشكالا أخرى منها، أبرزها سلسلة الفعاليات ضد حصار غزة وجدار العزل العنصري ومن أجل عضوية فلسطين في الأمم المتحدة.

هذه المقاومة السياسية للعلاقة غير السوية بين الغرب وإسرائيل تتم بمشاركة يهود من الغرب ومن إسرائيل، لكن هذه المشاركة لا تمثل، بالنسبة لهؤلاء، سوى جزءا مما يقومون به في هذا الميدان، كون نضالهم يندرج في مسار يخصهم بصورة مباشرة، هو مسار تاريخ معارضة اليهود للصهيونية بالتحديد.

1 – قنتر غراس Gunther GRASS، 80 سنة، جائزة نوبل للآداب يوم 4/4/2012.

وهذا التاريخ لا ينفصل بدوره في الواقع، عن تاريخ الصهيونية ذاتها، وصار مثله متشعب الأوجه والإيديولوجيات، ومتنوع اللغات والثقافات السياسية، الخ. لذا ارتأيت تخصيص هذه الدراسة لجانب منه هو تاريخ النقد الفكري للصهيونية من خلال استعراض نماذج من النصوص لكتاب يهود منشورة بالفرنسية (كلغة أصلية أو مترجم إليها). واخترت لهذا الغرض البدء بتأليف لبرنار لازار صدر قبل انعقاد أول مؤتمر عالمي للصهيونية بثلاثة أعوام والانتهاء بتأليف شلومو ساند صدر عام 2008 في خضم ما يسمى في إسرائيل "التاريخ الجديد"، مع العلم أن ما أقدمه لا يزيد عن غيض من فيض.

برنار لازار: لا للاستثنائية اليهودية

أصدر برنار لازار(1865-1903)، الصحفي السياسي والناقد الأدبي الباريسي، كتابا حول معاداة السامية سنة 1894. كانت فرنسا تعيش حينذاك على وقع تداعيات قضية النقيب دريفوس[2] الشهيرة، وهي القضية التي جعل منها تيودور هرزل الدافع المعلن لدعوته إلى أول مؤتمر للصهيونية في 1897.

فجرى الربط بين هذه الأمور الثلاثة وتقديم لازار على أنه كان ينتصر لهذا وذاك.

الشيء المؤكد هو أن الصحفي المذكور كان يهدف إلى الرد على كتاب دريمون، زعيم اليمين المتطرف في فرنسا آنذاك،الذي صدر عام 1886 تحت عنوان فرنسا اليهودية. كذلك غلّب لازار نزعته الفوضوية في الكثير من صفحات كتابه، كاشفا عن مناهضته للأطر المؤسسية القائمة، بما فيها مؤسسة الجيش التي كان دريفوس ينتمي إليها، كما أنه انتقد أسس الإيديولوجية الصهيونية النامية التي لا تختلف، من وجهة نظره، عن أسس الإيديولوجيات الاستعمارية الأوربية.

بالنسبة له، يمتد تاريخ معاداة اليهودية من بداية القرن الرابع الميلادي إلى منتصف القرن التاسع عشر، بينما تعد "معاداة السامية" نزعة حديثة العهد ولا يزيد عمر العبارة نفسها على عشرين سنة. وذكر لازار بأن أصل معاداة اليهودية يعود إلى المسيحية المنتصرة ثم إلى الزعامة الدينية اليهودية في المراحل التالية بسبب سلوكها الانطوائي وتزمتها الديني وتفاخرها بتفوق التوراة على

2 - Alfred Dreyfus

غيره[3].

واستشهد بعدد من الوقائع التي حدثت بين القرن 13 والقرن 18 والتي تبين تحامل تلك الزعامة على المثقفين اليهود الداعين إلى إعمال العقل وعدم الفصل بين الخصوصية والكونية فصلا تعسفيا وعنصريا. وربما كان تحليله لهذه النقطة بالذات هو الإسهام الأكثر جدية وموضوعية.

هذا وقد وضع لازار الإيديولوجية الصهيونية في سياقها التاريخي قائلا: إن اليهود باتوا ينظرون لأنفسهم في جو النزعات القومية الأوربية، الذي طبع القرن 19، "على أنهم شعب مختار يعلو على كافة الشعوب الأخرى، الشيء الذي يميز كل الشعوب المتطرفة قوميا، سواء تعلق الأمر بالألمان أو بالفرنسيين أو بالإنجليز في الوقت الحالي"[4]، مضيفا أنهم "جعلوا من إسرائيل [اليهود] مركز العالم وخميرة الشعوب ومحرك الأمم، وهو أمر عبثي ويظهر اشتراك أصدقاء اليهود وأعدائهم على السواء في التفكير. إنهم يمنحون اليهود أهمية مبالغا فيها"[5].

وهاجم لازار التفسير الذي كان يحاول إضفاء طابع علمي مزعوم على المشاريع الاستعمارية كافة بما فيها المشروع الصهيوني، والقائل بأن انعدام المساواة بين الشعوب موجود منذ البداية ومتأصل فيها، موضحا بأنه "يعني ببساطة أن بعض الشعوب وجدت نفسها تعيش في ظروف جغرافية ومناخية وتاريخية أفضل من تلك التي كانت تعيش فيها غيرها من الشعوب، فاستطاعت بالتالي أن تتطور بصورة أكمل وأكثر انسجاما وليس لأنها تمتعت بقابلية أفضل أو بدماغ أحسن تكوين. والدليل على ذلك هو أن بعض الأمم المنتمية إلى العرق الأبيض الذي يزعم التفوق أقامت حضارات أقل رقيا بكثير من حضارات ذوي

3 – Bernard Lazare, L'antisémitisme, son histoire et ses causes, éd. L. Chailley, 1894, p. 13 –16.

كان الجو العام في فرنسا آنذاك مشحونا بالتوتر الناجم عن النزاع القائم بين "الجمهوريين" والمؤسسة الكنسية. في 6 جانفي 1898 اتهم إيميل زولا (الروائي الكبير الذي دافع بقوة عن دريفوس) بدوره الكنيسة الكاثوليكية بالوقوف وراء معاداة السامية.

Cf .René remond .L'anticléricalisme en France de 1815 à nos jours .Nouvelle édition augmentée et mise à jour, éditions Complexes, Bruxelles,1985, p.206 .

4 – B. Lazare, op. cit., p. 143.

5 –Ibid, p.191.

البشرة الصفراء أو حتى السوداء"[6].

نشير في ختام هذه الفقرة إلى أن الكتاب لم يطبع من جديد إلا بعد حوالي قرن من ظهور الطبعة الأولى نتيجة الحصار الذي كان مضروبا حوله.

"أغودات إسرائيل" ومارتن بوبر[7] : التوراة ضد الصهيونية السياسية

إذا كان لازار قد عارض الصهيونية باعتبارها مشروعا استعماريا قائما على استثنائية يهودية مزعومة، فإن أغلبية من اليهود عارضتها في البداية بدافع ديني. أما الجماعات الأرثوذكسية بالذات، فقد ظلت تنظر إلى الصهيونية بصفتها خطرا يضاعف من الأخطار المحدقة بالوحدة التقليدية للطائفة اليهودية والناجمة عن التحولات الجارية بداخل المجتمعات الأوربية وعن القومية العلمانية الأوربية الصاعدة إبان القرن 19. فقررت تلك الجماعات تشكيل ائتلاف مقاوم في عام 1912 في كل من بولندا وفلسطين تحت اسم "أغودات إسرائيل" الذي يعني "اتحاد إسرائيل" أي اليهود.

في مواجهة الصهيونية السياسية تحديدا، دافع هذا الائتلاف طيلة الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية عن واحد من التوجهات الدينية الأساسية الذي يفيد بأن قيام دولة يهودية أمر مشروط بقدوم المسيح، فحاربت على أساسه كل البرامج ذات التوجه القومي والعلماني التي طرحتها الحركة الصهيونية، كما حاولت إقامة صلات مع العرب الفلسطينيين من أجل التعاون في هذا المجال... الخ[8]. ثم انتقلت "أغودات" إلى مرحلة جديدة تحت وقع الفاجعة التي حلت باليهود في أوربا خلال الحرب العالمية الثانية، إذ أجرت مراجعة إيديولوجية أفضت إلى انبثاق جناح اختار مسايرة الحركة الصهيونية السياسية، من جهة، وإلى انشقاق الفريق الممثل للخط الأصلي تحت اسم "نطوري قارتا " مطلع الخمسينات، من جهة ثانية.هذه المجموعة التي تطلق على نفسها أيضا "اليهود المتحدين ضد الصهيونية" تعلن اليوم بوضوح أن "إقامة دولة [إسرائيل] على أرض فلسطين شيء يخالف التوراة "فتطالب "بالتفكيك السلمي للدولة الصهيونية "لتحل محلها "السيادة الفلسطينية على كامل

6- b. Lazare ,op .cit ,.p.252 .

تعرض هرزل لمحاولة اغتيال في عام 1895 على أيدي شخص بحجة أنه مصدر خطر على اليهود فرد بأنه " بدأ يشعر بأن من حقه أن يكون أكبر معاد للسامية ".

Cf. Roger garaudy, L'affaire Israël. Le sionisme politique. Dossier, PAPYRUS éditions, Paris, 1983, p. 114.

7-Martin BUBER

8-Agudat- Israël,
http://www.akadem.org/médias/documents/-agudat-israel-Doc2PDF

الأرض المقدسة "،ولينظر حينذاك في مصير اليهود الراغبين في البقاء على أن يصدر بشأنه "قرار من الشعب الفلسطيني وزعمائه حصرا"[9].

هذا التصور الجذري للمشكل وللحل معا بقي هامشيا بين اليهود المعارضين للصهيونية، بمن فيهم المعارضون من منطلق ديني،ويبدو أقرب إلى ذاك الذي تبناه مارتن بوبر (فيينا 1878- القدس 1965) في المرحلة الثانية من حياته.

كان هذا الفيلسوف قد التحق بالحركة الصهيونية عند انطلاقها من باب التصوف، وساهم في الدفاع عن واحدة من أفكارها التي تقول بأن اليهود يكونون "جماعة على أساس الدم " الذي هو، حسبها، أصل كل شيء، بما في ذلك الأفكار والإرادة والروح، الخ. وبقي ضمن تلك الحركة طالما اعتقد أنها قائمة على أسس دينية وحدها، ثم اعتبر أنها انحرفت تحت تأثير القومية الأوربية في القرن 19. بالنسبة له" الأمة ليست هي القيمة العليا...لا تصلح الإيديولوجية القومية أو الروح القومية إلا بالقدر الذي لا تجعل من الأمة غاية في حد ذاتها... اليهود أكبر من مجرد أمة: إنهم أعضاء جماعة إيمانية"[10]. وأبرز من جديد اختلافه مع مشروع الصهيونية السياسية في مراسلة موجهة لغاندي. فعلى إثر اتهام الزعيم الهندي للحركة الصهيونية،سنة 1939، بالسعي إلى الحصول على موطن في فلسطين على حساب أهلها العرب، بدلا من حث اليهود على البقاء ومكافحة الاضطهاد حيث يقيمون، أوضح بوبر أن" المهم بالنسبة لنا ليس الوعد بالأرض وإنما المطلب الذي يرتبط تحقيقه بالأرض وبوجود جماعة يهودية حرة في هذه البلاد " تعيش بجانب العرب[11]. وأكد ذلك الفيلسوف المتصوف،في محاضرة ألقاها بنيويورك عام 1958، أن"نهضة الشعب اليهودي "مشروطة" بالاندماج في عالم الشرق الأدنى"، دون اللجوء إلى القوة ودون"التحول إلى جيب للعالم الغربي " وكشف أنه سبق له أن اقترح، عام 1921، فكرة تشييد " اتحادية للشرق الأدنى "، وأنه لا يزال مؤمنا بإمكانية تجسيدها بالرغم من قرار تقسيم فلسطين وقيام إسرائيل[12].

مكسيم رودنسون(2004 – 1915) وحرب 1967: بروز مسألة "إزالة الصهيونية"

في ماي 1967 نشرت مجلة الأزمنة الحديثة، الشهيرة بين المثقفين الفرنسيين

9-NetureiKarta International. Juifs réunis contre le sionisme, le sujet palestinien, Série B – Pamphlet n° 3, http//://www.nkusa.org.2003.

10- Cité par R. GARAUDY, op. cit., p. 27.

11 – Ibid., p. 28.

12 – Ibid., p. 29.

للعلم اعتمدت في هذه الفقرة على ملخص كتاب بوبر الصادر أصلا بالإنجليزية والذي أورده غارودي في المرجع المذكور وليس على الترجمة العربية المنشورة عام 1984 من قبل دار الشروق وذلك نظرا لتحفظاتي العديدة عليها.

المحسوبين على اليسار المؤسسي، عددا خاصا بعنوان "النزاع الإسرائيلي العربي "، حرصت إدارتها، بقيادة الفيلسوف جون بول سارتر، على أن يعكس محتواها نوعا من التوازن بين المقالات المؤيدة لطرفي النزاع المذكور. وبعد أيام معدودة، قامت القوات الإسرائيلية بعدة هجمات أثناء الأيام بين 5 و11 جوان 1967، واحتلت خلالها هضبة الجولان والضفة الغربية لنهر الأردن والقدس القديمة وغزة وسيناء وشرم الشيخ، وباتت بالنتيجة

تسيطر على أكثر من 100.000كلم^2. فمنحت أخبار الغزو الإسرائيلي الجديد أهمية استثنائية لعدد الأزمنة الحديثة المذكور. ومما زاده قيمة تصديره بمقال لمكسيم رودنسون "إسرائيل واقع استعماري؟".

كان هذا المؤرخ والعالم الاجتماعي واللغوي،العصامي التكوين بعد أن فقد والديه في المعسكرات النازية،والمعروف بعمق تحليله الماركسي،كان واحدا من المثقفين الفرنسيين القلائل المؤيدين آنذاك للشعب الفلسطيني. وجاء مقاله إسهاما كبيرا في تجديد الفهم السائد للوضع القائم في"الشرق الأدنى".

إنه رسم لوحة عن تاريخ الصهيونية (لاسيما تطورها الإيديولوجي عبر عدد من الأطر المنظمة الاشتراكية والقومية والشخصيات الثقافية ذات النفوذ)، كما أنه حلل حجج بعض الزعماء العرب (مثل جمال عبد الناصر والمهدي بن بركة) قبل أن يكتب : "إن تكوين دولة إسرائيل على الأرض الفلسطينية هو تكريس لسيرورة تندرج على أكمل وجه في الحركة الكبرى للتوسع الأوربي - الأمريكي أثناء القرنين ال 19 وال 20 (...) ومن الواضح أن [ذلك التكوين] يجسد سيرورة استعمارية ذات صفات خاصة، مثلها مثل سيرورات أخرى كثيرة[13]".

أثار ذلك المقال نوعين من ردود الفعل: انطلاق حملة تتهم صاحبه بمعاداة السامية وخيانة اليهود، من جهة، وطرح مسألة الانتقال من مرحلة أوشويتس إلى مرحلة إزالة الصهيونية، من جهة ثانية[14]. في خضم ذلك، اختار كاتبه إطلاق مبادرة لتكوين "فوج البحث والعمل لحل المشكل الفلسطيني " بعضوية جامعيين فرنسيين وإسرائيليين، من بينهم مستشرقون معروفون لدى الأوساط الجامعية في المغرب كما في المشرق، في مقدمتهم جاك بيرك وجاك كولاند. وعكس

13-Maxime Rodinson, Israël fait colonial÷?, Revue des Temps modernes, mai 1967.

14- عن تأثير مقال رودنسون:

Cf .Bernard Ravenel ,Dans la revue des temps modernes :le basculement conceptuel de Maxime RODINSON ,publié le vendredi 28 septembre 2007 , http// :www3.france-palestine.org/article.6719 html.

القانون التأسيسي للفوج، المصادق عليه في 16 جوان 1967، الغاية المرجوة من إنشائه وهي " مواصلة الأبحاث حول أسباب وخصائص النزاع الإسرائيلي - العربي (...) [لاسيما] دراسة التعديلات والتعويضات والتجديدات المرتبطة بالوضع السابق على الأزمة الحالية والكفيلة بتسهيل موافقة الطرفين على تسوية شاملة ونهائية تضمن التعايش السلمي، ضمن المساواة واحترام حقوق الإنسان، للجماعتين المقيمتين على أرض فلسطين (...)[15]". وقرر الفوج أن تكون أول خطوة في هذا الاتجاه الدعوة إلى عقد ندوة دولية"من أجل السلام والعدل في الشرق الأوسط" لكن الصعوبات حالت دون اجتماعها حتى شهر ماي 1973 في بولونيا (إيطاليا).

وفي عام 1974، جرى جمع وطبع النصوص -المقالات والوثائق- التي نشرها الفوج خلال السنوات الخمس المنصرمة على شكل كتاب من أجل " تعريف الرأي العام الفرنسي بمجموعة من المعطيات كان يجري إخفاؤها عن عمد وتحت ستار كثيف بواسطة دعاية معدة بإتقان وكذلك بواسطة مشاعر نبيلة تماما أحيانا لكنها تؤدي إلى استنتاجات خاطئة بتأثير من الجهل والأهواء التي تعمي الأبصار[16]".

كان أعضاء الفوج يهتدون ببعض القواعد المبدئية المحددة مثل "النضال ضد تجاهل مطامح [العرب] المشروعة وتشويه تاريخهم القديم أو الحديث وضد الميل إلى معاملتهم كأقل من البشر " دون "الدعوة إلى ارتكاب شكل من أشكال الظلم لفائدتهم"، معتبرين في نفس الوقت " مطامح اليهود (...) جديرة بالاحترام وبالدفاع الحازم عندما تستهدف تحقيق ما يجب ألا يحرم منه أي إنسان: الحرية، المساواة في الحقوق والفرص، الكرامة".

بناء على تلك القواعد المبدئية حدد الفوج موقفه من الصهيونية ومن دولتها. إنه يعادي الصهيونية لأنها اختارت أن تتجمع في " بلد كانت ساكنته عربية بلا جدال تحت حكومة الإمبراطورية العثمانية " ولأنها لم تسأل هؤلاء رأيهم في أي وقت من الأوقات، الأمر الذي نجم عنه اللجوء إلى طردهم أو إخضاعهم حسب المراحل. ومن جهة أخرى، لا ينظر أعضاء الفوج إلى "لشعب الإسرائيلي كمجموع من المجرمين (...) من الخطأ أن نجعل بكل بساطة من "الصهيوني مرادفا للإسرائيلي، حتى وإن كان صحيحا أن أكثرية

15 -J. Berque, J. Couland, L-J. Duclot, J. Hadamard, M. Rodinson, les palestiniens et la crise israélo-arabe, textes et documents du groupe de recherches et d'action pour le règlement du problème Palestinien (G.R.A.P.P.), 1967-1973, Editions sociales, Paris, 1974, p. 21.

16 - Ibid., p. 8.

الإيديولوجيات الإسرائيلية" والممارسات المتطابقة معها تدافع عن الواقع الجديد المنبثق عن المشروع الصهيوني أو تقبل بإطاره ".[17]

بالنسبة لمكسيم رودنسون تخصيصا، كان ذلك الواقع يتمثل على أرض فلسطين في وجود " جماعتين متميزتين لكل منهما طابعها القومي (...)لكن إحداهما في وضع من الخضوع والأخرى في وضع من السيطرة. إنه وضع استعماري (...)[18]". وأضاف بشجاعة نادرة (بمعايير الظروف الخاصة والعامة المحيطة آنذاك بهذا الموضوع في الغرب) أنه يتعين أن يكون الاعتراف بحق الإثنية الإسرائيلية الموجودة في التمتع بكافة الحقوق العادية " اعترافا مشروطا (...) لأنها فرضت نفسها بالقوة. إن الشرط الناجم عن هذا الأمر الجوهري يتمثل في إقدامها على تصفية هذا الوضع القائم على القوة، على اضطلاعها بمسئولية هذه التصفية "، مستبعدا الحل الذي طبق في الجزائر عام 1962 على اعتبار أن " الإثنية الإسرائيلية مكتملة المقومات خلافا للإثنية الفرنسية التي كانت غير قادرة على العيش بقدراتها الذاتية"[19]. كان رودنسون يلمح دون شك إلى التجربة التي سميت "الاشتراكية الصهيونية" والتي كانت تستهدف من خلال إنشاء "الصندوق القومي اليهودي" عام 1901 خلق اقتصاد (ومجتمع) منفصل على أرض فلسطين ومعتمد على شبكة من التعاونيات الحرفية والمزارع.

جاك كولاند: التركيز على الإمبريالية

من جانبه أبدى جاك كولاند، في مطلع كتابه إسرائيل والشرق الأدنى العربي المنشور عام 1969، تفضيله لمعالجة الموضوع بكيفية تختلف عن تلك التي ظهرت في كتابات رودنسون، قائلا:" يجري التأكيد بصفة عامة على السمات الخاصة للنزاع الإسرائيلي-العربي أي على ما يميزه. وهو شيء لا يمكن إنكاره، لكن التمسك به وحده يؤدي إلى ارتكاب أغلاط خطيرة. هذا هو حال الذين يقدمون أنفسهم على أنهم معادون للإمبريالية واستطاعوا مع ذلك في جوان 1967 ثم فيما بعد أن يفصلوا ذلك النزاع عن المشاكل التي يطرحها النشاط المتعدد الأشكال للقوى الامبريالية في العالم "[20].

إن النزاع الدائر في "الشرق الأدنى" يندرج، من وجهة نظره، في إطار كوني أوسع، ويمثل واحدا من تجليات المواجهة العالمية بين القوى الامبريالية والرجعية من جهة، والقوى الثورية والديمقراطية من جهة أخرى، ولم يكتسب

17 - Ibid., p.11.

18 – Ibid ,.p.69.

19 – Ibid., p.81.

20 – J. Couland, Israël et le Proche– Orient arabe, Editions Sociales, Paris, 1969, p.11.

خصوصيته على الصعيد التاريخي العام إلا بعد قيام دولة إسرائيل وتحوله إلى نزاع عربي-إسرائيلي[21]. ولا جدوى من مناقشة حق دولة إسرائيل في الوجود وحقيقة الشعب الإسرائيلي وينبغي، بدلا من ذلك، مكافحة سياسات هذه الدولة، المنافية لتعهداتها كعضو في الأمم المتحدة، ومن بينها سياسة التمييز إزاء الفلسطينيين العرب وسياسة التوسع على حساب البلدان العربية المجاورة.[22]

بعبارة أخرى،بقي هذا المؤرخ وفيا للطرح الشيوعي الرسمي في فرنسا وفي الاتحاد السوفييتي، المبني على تأييد قرار تقسيم فلسطين في 1947 وقيام دولة إسرائيل، دون الاعتراف بالنكبة الفلسطينية وآثارها وبمسئولية مختلف الدول عن كل ذلك.

ناتانوينستوك (1939 -) : **الحل بيد "الثورة العربية"**

اشتهر ناتانوينستوك في بلجيكا وخارجها كمناضل مناهض للرأسمالية وللصهيونية، ذي التوجه التروتسكي، وكأستاذ جامعي في علم الإجرام ومحامي ومترجم. وعندما أصدر كتابه الصهيونية ضد إسرائيل عام 1969، تلقفته أوساط أقصى اليسار في أوربا باعتباره الكتاب المرجعي المنتظر من كافة المعادين للصهيونية. وقع الاحتفاء به،على ما يبدو، لأن مؤلفه قدم فيه تفسيرا لجانب من المشهد السياسي في إسرائيل ظل لغزا محيرا للكثيرين أو واحدة من المفارقات العجيبة.

سبقت الإشارة إلى وجود معارضة يهودية دينية للمشروع الصهيوني ككل في عين المكان بفلسطين وفي خارجها. في المقابل، أظهر ونستوك أن الأحزاب الدينية المختلفة تؤدي دورا هاما داخل دولة إسرائيل بالرغم من ضيق قاعدتها الاجتماعية، كون الغالبية العظمى من السكان اليهود لا تمارس أية شعائر دينية:" إذا كانت ظلامية الحاخامات منتصرة في إسرائيل، فلأن العقيدة الصهيونية تصبح عديمة الانسجام إذا خرجت عن المرجعية الموسوية. ألغ مصطلح "الشعب المختار" ومصطلح "الأرض الموعودة" وسترى أساس الصهيونية ينهار. لذا تستمد الأحزاب الدينية قوتها من تواطؤ الصهاينة اللادينيين معها. إن الانسجام الداخلي للبنية الصهيونية لإسرائيل فرض على قادتها تعزيز سلطة المؤسسة الدينية، فالذي قام بإدراج دروس الدين الإجبارية في المدارس هو الحزب الاجتماعي- الديمقراطي "مابای" مدفوعا من بن غوريون وليس الأحزاب الدينية".[23]

21 - Ibid., p.45- 46.

22 - Ibid., p.171.

23 - Nathan Weinstock, Le sionisme contre Israël, Maspero, Paris,1969, p.315.

وفي كتاب ثان معنون الحركة الثورية العربية، الصادر بعد عام من الأول، أبدى وينستوك تأييدا صريحا لمختلف النضالات الشعبية العربية المناهضة للاستعمار والامبريالية والرأسمالية والتي جرت خلال القرن 20، بما فيها النضال ضد الدولة الصهيونية. إنه اعتبر تلك الحركات الشعبية،على اختلاف مشاربها وأهدافها، فصائل متفاعلة فيما بينها ضمن "ثورة عربية شاملة "وأن مآل هذه الثورة، المنتصرة لا محالة، هو الذي يحمل الحل للمشكل الذي يطرحه وجود دولة إسرائيل في المنطقة وذلك عبر دمج اليهود في الدولة الثورية العمالية الموحدة[24].

غير أن ناتانوينستوك رفض إعادة طبع الكتابين المذكورين إثر نبذه لكل من توجهه التروتسكيوي لإيمانه بالمحتوى التقدمي "للثورة العربية". وأصبح يحمل الجانب الفلسطيني مسئولية فشل اتفاقات أوسلو بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية بدعوى تمسك الفلسطينيين بخيار "العنف" وبما يسميه نظرتهم التقليدية القائمة على "احتقار اليهود بصفتهم من أهل الذمة"[25].

قيباجوة : الشراكة الناجحة بين الامبريالية والصهيونية

في مداخلته للندوة الدولية حول الصهيونية والعنصرية، المنعقدة بطرابلس ليبيا عام 1976، ألح الأستاذ البلجيكي في علم الاجتماع، قيباجوة، على ضرورة إدراك أسس العلاقة بين الصهيونية والامبريالية المسيطرة منذ 1880.

فهو يرى أن الصهيونية حرصت باستمرار على التكيف والتحول من أجل الحفاظ على دعم الامبريالية لمساعيها الخاصة، الرامية إلى إقامة دولة يهودية. وقد جرى ذلك التكيف والتحول على مستوى الحجج المقدمة من الجانبين، أي تماثل الإيديولوجية الصهيونية مع الإيديولوجية الاستعمارية الأوربية، باستثناء النقطة الأساسية المتعلقة بخلق دولة عبر الالحاح على حجة العودة وعلى أن تكون دولة لليهود.

وكانت الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك المشروع هي اللجوء إلى "استخدام حركة توسعية استعمارية لدولة أخرى والقيام بغزوعن طريق اقتفاء أثرها - بريطانيا العظمى. هذا الأمر يفسر كذلك لماذا كانت الوسيلة الوحيدة لكسب دعم دول أخرى هي تفضيل حجة معاداة السامية. فبما أن اليهود لم يكونوا يملكون بأنفسهم الإمكانيات اللازمة للقيام بالغزو بالقوة، كان عليهم كسب دعم دول أخرى ويهود الشتات بدعوى اضطهادهم المستمر وعدم قابلية المعادين للسامية

24 - Cf. du même, Le mouvement révolutionnaire arabe, Maspero, Paris, .1970

25 - أنظر موقعه على الانترنت.

للدواء والتأكيد على أن الحل الوحيد للمسألة اليهودية هو خلق دولة"[26]. وقد أنشئت هذه الدولة بالتحديد في الوقت الذي كانت الامبريالية الغربية تعيش فيه تغيرات ما بعد الحرب العالمية الثانية. وخلافا لما كتبه رودنسون وسبقت الإشارة إليه، دافع بلجوة عن طرح شبيه بالطرح الفلسطيني، القائل بأن تلك الدولة لم تكن تملك اقتصادا يمكن الاعتماد عليه[27]. وأوضح في هذا الصدد أنها كانت بحاجة إلى أن تضخ إليها الدول الغربية (الولايات المتحدة الأمريكية بالدرجة الأولى) ويهود الشتات ما بين 500 مليون ومليار دولار سنويا، وأنها وقعت مقابل الحصول على احتياجاتها المالية تحالفا مع الولايات المتحدة الأمريكية يقضي بتقديمها عدد من الخدمات لصالح الإستراتيجية الامبريالية في المنطقة (مثل كسر الأسواق العربية ومنع الوحدة العربية وإجبار البلدان العربية على الإنفاق المستمر على الدفاع بدل التنمية وأداء إسرائيل دور كبش الفداء من أجل بقاء الأنظمة غير الشعبية فيها، الخ).

ومع ذلك ليست إسرائيل مجرد أداة إمبريالية، بل تملك إستراتيجية خاصة بها أيضا، وهي إستراتيجية الاستيطان في الأراضي العربية. باختصار: "إن نجاح المشروع الصهيوني لاستعمار فلسطين مرهون بالكامل بقيام إسرائيل بالوظيفة الامبريالية لحساب قوى غربية وبالخصوص الولايات المتحدة الأمريكية. ولأن إسرائيل تقوم تحديدا بمحاربة العرب يمكنها الحصول على الوسائل المادية- رؤوس الأموال لموازنة اقتصادها، قوة عمل لتشغيله، أسلحة، مستوى معيشة مرتفع لأغلبية سكانها-الضرورية لمواصلة المشروع الصهيوني وعودة اليهود وإدامة يهودية الدولة. لكنها في نفس الوقت تبقى معزولة في محيطها المعادي لها بالشرق الأدنى وتابعة اقتصاديا للقوة الغربية لأنها تحارب العرب بالذات. وهكذا تجد إسرائيل نفسها في دائرة مفرغة من التبعية والامبريالية 3"[28].

المؤرخون الإسرائيليون الجدد: نقد الرواية الرسمية الإسرائيلية عن حرب 48

ترافقت الاحتفالات بالذكرى الأربعين لإنشاء دولة إسرائيل مع صدور أربعة

26 – G. Bajoit, Sionisme et impérialisme, in actes du Symposium international sur le sionisme et le racisme 1976, Tripoli, Le Sycomore, Paris, 1979 p.177 .

27 – هناك دراسات فلسطينية عديدة حول هذه المسألة. أنظر مثلا إسرائيل: هل هي دولة قابلة للحياة ؟ (بلا توقيع)، مجلة صامد الاقتصادي الصادرة عن مؤسسة صامد وهي جمعية معامل أبناء شهداء فلسطين، العدد 32، أيلول 1981، ص 63 – 100.

28 – G. Bajoit, op.cit., p. 182.

كتب على درجة كبيرة من الأهمية التاريخية[29]. حتى ذلك العام، كانت رواية المنتصرين في حرب 48 لا تلقى اعتراضا قويا إلا في العالم العربي، ولذا أطلق على تلك المجموعة من المؤلفين اسم "المؤرخين الجدد" أو " المؤرخين الإسرائيليين المنقحين" إلى جانب إطلاق السيل المعتاد من الأوصاف الكريهة، بما فيها اتهامهم بالخيانة.

استغل هؤلاء المؤرخون الوثائق المفرج عنها بعد العام 1978 لإخضاع الرواية الإسرائيلية الرسمية حول حرب 48 للنقد التاريخي، كل حسب محور معين.

المحور الأول يتعلق بسياسة بريطانيا بشأن تقسيم فلسطين بين عامي 1947 و1949، والتي تقدمها الرواية السائدة في إسرائيل على أنها كانت سياسة معادية تماما لإقامة الدولة الصهيونية ومشجعة بالكامل لمقاومة العرب لذلك المشروع. غير أن إيلان بابيه خلص إلى بطلان تلك الرواية، مبينا أن بريطانيا كانت ترى أن الدولة الفلسطينية المتوقع إنشاؤها، حسب قرار التقسيم الأممي في 29/11/47"، هي المرادف لدولة المفتي"الحاج أمين الحسيني. وبما أن الأخير كان ينظر إليه كعدو مشترك للاستعمار البريطاني ولتابعه عبد الله ملك الأردن،وللمشروع الصهيوني معا، أقدمت بريطانيا على الانسحاب لمصلحة ظهور الدولة اليهودية، وعلى تقديم دعمها لعبد الله من أجل إجهاض ولادة دولة فلسطينية.

المحور الثاني يتعلق بميزان القوة العسكري. الرواية الرسمية الإسرائيلية تقدم حرب 48 على أنها صراع غير متكافئ بين داود اليهودي وجالوت العربي وأن اليهود خاضوا القتال في الجولة الأولى من تلك الحرب من أجل البقاء. لكن المؤرخين الجدد أبرزوا أن إسرائيل تمتعت في الحقيقة بتفوق عسكري متزايد، نظرا لتفوقها الاستراتيجي (مساندة كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي السياسية والدبلوماسية والعسكرية). إن أفضل تقدير للقوات العسكرية المتحاربة يفيد أنه كان لإسرائيل 35 ألف جندي في الميدان مقابل 20 إلى 25 ألف جندي عربي وأن ضعف الطرف الإسرائيلي لم يكن في الجانب البشري وإنما في قوة النيران وهو الضعف الذي جرى تداركه بانتهاك حظر إدخال الأسلحة إلى الميدان الذي فرضته الأمم المتحدة على الجانبين خلال الهدنة الأولى. لقد قامت إسرائيل باستيراد المدافع والدبابات

29 - المقصود بذلك الكتب التالية: سمحا فلابان، ميلاد إسرائيل: أساطير ووقائع؛ بيني موريس، نشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين 1947 – 1949؛ إيلان بابيه، بريطانيا والصراع العربي – الإسرائيلي 1948 – 1951؛ آفيشليم، التواطؤ على الأردن : الملك عبد الله، الحركة الصهيونية وتقسيم فلسطين.بالرغم من كون هذه الكتب منشورة بالإنجليزية، إلا أنني أقحمت فقرة عنها في هذه الدراسة،معتمدا على ثلاثة مقالات : اثنان منها للمؤلفين أفي شليم (بالعربية) وإيلان بابيه (بالفرنسية) والثالث للباحث دومينيك فيضل (بالفرنسية كذلك).

والطائرات من الكتلة الشرقية، فاستطاعت قلب ميزان القوة العسكري بشكل حاسم لصالحها. هنا يكمن تفسير انتصارها وليس في حدوث "معجزة" ما.

المحور الثالث يتعلق بأهداف العرب من الحرب: " لماذا أرسلت الدول العربية جيوشها إلى داخل فلسطين عند لحظة انتهاء الانتداب في 15 أيار 1948 ؟ الجواب الصهيوني الدارج والرسمي يقول: إن العرب كانوا موحدين وأن هدفهم كان تدمير الدولة اليهودية الوليدة ورمي اليهود في البحر"، إلا أن المؤرخين الجدد قدموا تفسيرا مختلفا تماما يفيد بأن الزعماء العرب كانوا، بالعكس، منقسمين وغير منظمين، لا يملكون أية خطة إستراتيجية متفق عليها، كما أنهم زجوا إلى الميدان بقوات غير مهيأة وغير مجهزة وبقادة غير أكفاء لخوض حرب طويلة من هذا النوع. فالجيش العربي الوحيد المؤهل حينذاك، حسب هؤلاء المؤرخين، -"الفيلق العربي" بالأردن- كان قد جرى تحييده بواسطة الاتفاق المعقود في 17 نوفمبر 1947 بين غولدا مائير والملك عبد الله،والذي كان يقضي بعدم اجتياز ذلك الجيش للأراضي العائدة إلى إسرائيل، مقابل إمكانية إلحاق الأراضي العائدة للدولة الفلسطينية بمملكة شرق الأردن. كما دخلت الأسر الحاكمة العربية تلك الحرب متنافسة فيما بينها ومن أجل تحقيق أهداف خاصة، سواء كانت داخلية (بالنسبة للملك فاروق في مصر)، أو إقليمية (أطماع عبد الله في الشام) أو ذات صلة بنزاع تاريخي (كما كان الحال بالنسبة للهاشميين في الأردن والعراق). وبحسب أولئك المؤرخين أيضا، فإن الجيوش الرسمية العربية التي دخلت الأراضي الفلسطينية لم تقم بمساعدة الفلسطينيين، وإنما قامت بمعاملتهم باحتقار وحتى بوحشية، كما لم تف الجامعة العربية بوعودها بمدهم بالمال والسلاح، الخ.

المحور الرابع يتعلق بأسباب قيام مشكلة اللاجئين، الماثلة في تحول نصف السكان العرب في فلسطين منذ عام 48 إلى لاجئين.توجد بهذا الشأن روايتان على طرفي نقيض. تقول الرواية الإسرائيلية الرسمية إن الفلسطينيين تلقوا أوامر من قادتهم بمغادرة بيوتهم إلى أن تحقق الجيوش العربية الانتصار، في حين تقول الرواية العربية إن إسرائيل هي التي دفعت الفلسطينيين إلى خارج البلاد وأنها تتحمل مسئولية منحهم حق العودة أو تعويض من لا يريدونها.

ذكر بيني موريس في هذا الصدد روايتين. جاء في الأولى أنه لم يعثر على ما يثبت وجود دعوات عربية للفلسطينيين بالمغادرة، كما لم يجد ما يثبت وجود خطة صهيونية لطردهم. واستنتج أن "مشكلة اللاجئين كانت نتيجة ثانوية للحرب "وتعود إلى أسباب عديدة و"لكن السبب الأهم كان يتمثل في

الضغوط العسكرية والسياسية والنفسية التي مارستها إسرائيل عليهم".[30] وفي مرحلة تالية، راجع ب. موريس هذا الطرح، وتبنى طرح إيلان بابي عن "التطهير العرقي "بعد تأكد ه بأن المادة التاريخية الجديدة التي اطلع عليها تبين أن" الإسرائيليين ارتكبوا من المذابح ما يزيد كثيرا على ما كان يعتقد"[31].

كان إيلان بابيه قد كتب بشأن تاريخ حرب 48 أن "الفصل الناقص هو فصل التطهير العرقي الذي قام به اليهود في 1948. كانت نتيجة تلك الحملة هدم 500 قرية فلسطينية و11 تجمعا حضريا وطرد 700.000 فلسطينيا وقتل آلاف آخرين"[32]. وأوضح أنه جرى وضع مشروع منذ 10 مارس 1947 يرمي إلى الاستيلاء على 80% من فلسطين، كما أعطيت تعليمات للقوات العسكرية بتطهير الأراضي التي تقع بأيديهم من الفلسطينيين. و"تلقت كل كتيبة تابعة للهاغانا [الجيش السري الإسرائيلي] قائمة بالقرى المبرمج احتلالها وهدمها". وقد امتدت حملة التطهير العرقي من ديسمبر 1947 إلى ما بعد عام 1950، وعليه، يقترح بابي "إعادة فحص الأحداث التي وقعت في 1948 في إسرائيل وفلسطين انطلاقا من منظور التطهير العرقي وليس كجزء من عمليات عسكرية. من الناحية التاريخية هذا يعني أن الأفعال التي وقعت حينذاك تندرج ضمن السياسة الداخلية لنظام تجاه مدنيين. وبما أن التطهير العرقي جرى في حالات كثيرة في حدود الدولة اليهودية المنبثقة عن الأمم المتحدة، فهو يعد عمليات قام بها نظام ضد مواطنيه"[33].

شلومو ساند (1946 -) : كيف اخترع المؤرخون "الشعب اليهودي"

في أعقاب نقد الرواية الرسمية الإسرائيلية عن حرب 48، قام شلومو ساند بنقد أسطورة "الشعب اليهودي".

إنه انطلق من الصورة الذهنية التي يحملها كل يهودي إسرائيلي والتي تفيد بأنه يتماهى مع "شعب يهودي" موجود منذ 2.000 سنة أي منذ أن خرج من مصر وتلقى التوراة في سيناء ثم حل "بأرض الميعاد" وأقام عليها مملكته المجيدة وظل بها إلى أن حانت ساعة المنفى بعد هدم المعبد الأول في القرن

30 - أفي شليم، التاريخ الجديد والنكبة، جريدة حق العودة، العدد 32 - 33، 30 نيسان 2009. أنظر
http://www.badil.org/en/haq-alawda/item/47

31 -Dominique Vidal, 1948÷: la Palestine des archives aux cartes, mardi 19 février 2008, Association France Palestine Solidarité,
http://www.france-palestine.org/

32 - Ilan Pappe, Israël, un Etat dans le déni, Naqd, Revue d'études et de critique sociale, n° 21, automne hiver 2005, p. 39.

33 - Ibid., p. 42.

السادس ق. م. ثم تكررت القصة بعد هدم المعبد الثاني عام ...70 وكل يهودي إسرائيلي مقتنع بأن "الشعب اليهودي"، الذي يتماهى معه، هو أقدم الشعوب على الإطلاق وأنه، رغم الغربة والتيه بين بلدان العالم، إلا أنه لم يختلط ولم يذب واستطاع أن يحافظ طيلة 2.000 عاما على صلة الدم بين مجموعاته المتناثرة والمتباعدة وعلى وحدته صافية نقية. وكل يهودي إسرائيلي مقتنع بأن ذلك الشعب العتيق استيقظ من غفلته المديدة في نهاية القرن التاسع عشر وبدأ يحضر للعودة إلى وطنه وتحقيق الحلم الذي طالما راوده...

وككل يهودي إسرائيلي، كان شلومو ساند يعتقد بأن "التاريخ يصعد مباشرة من التوراة إلى النهضة القومية"رغم معاشرته للتاريخ كطالب بجامعة تل أبيب ثم بالمدرسة العليا للعلوم الاجتماعية بباريس ثم كأستاذ بالجامعة المذكورة[34]. ودام اعتقاده هذا حتى قامت الانتفاضة الفلسطينية الأولى... وحينها اكتشف أن تلك الصورة الذهنية ناتجة عن عمل إعادة بناء للماضي تولاها مؤرخون يهود خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، أبرزهم الألمانيان إسحاق ماركوس جوستوه اينرشغريتز والروسي سيمون دوبنون والأمريكي سالوويتماير بارون والفلسطيني إسحاق باير والأوكراني بن زيوندينور. فما هي إسهامات هؤلاء وماذا يميز كل واحد منها ؟.

بدأ جوست نشر الأجزاء التسعة لتأريخه حول اليهود عام 1820، واختار لهم تسمية "الإسرائيليين" التي كان أتباع موسى من الألمان والفرنسيين قد شرعوا يطلقونها على أنفسهم لتفادي تسمية اليهود التي كانت تثير ردود أفعال سلبية. وكان لاختيار جوست هدفا آخر يتمثل في إقناع قرائه في ألمانيا من اليهود والمسيحيين على السواء بأن "الإسرائيليين" لا يشكلون شعبا "غريبا" عن أماكن وجودهم، في وقت لم تكن فيه ألمانيا توصلت بعد إلى تكوين بنية سياسية واضحة [35].

غير أن ذلك المؤرخ لم يلبث أن أدخل تغييرا على تلك المنطلقات في كتابه

34 –S. Sand, Comment le peuple juif fut inventé. De la Bible au sio nisme, traduit de l'hébreu par Sivan Cohen–Wiesenfeld et Levana Frenk, Fayard, 2008, "Prix Aujourd'hui" 2009, p. 26.

35 – Ibid., p. 100.

الثاني المعنون "التاريخ العام للشعب الإسرائيلي"، الصادر في 1832، والذي خص فيه الحقبة التوراتية بمساحة أوسع وأظهر اليهود عبر صفحاته بمظهر "الكيان الفريد ذي الاستمرارية التاريخية الأطول"[36]. باختصار: قام جوست بالربط الوثيق بين الكتاب المقدس كوثيقة تاريخية موثوقة وبين محاولة تعريف الهوية اليهودية الحديثة. لكن كتابه هذا لم ينل أي قدر من الشهرة في وقته، ولم يترجم من الألمانية إلى لغات أخرى، بما فيها العبرية بالرغم (أو بسبب) كونه أول كتاب عن تاريخ اليهود في العصر الحديث.

خلافا لذلك لقي كتاب هاينر شغريتز "تاريخ اليهود منذ أقدم العصور وحتى أيامنا" رواجا واسعا بعد وقت قصير من صدور مجلداته الأولى في منتصف القرن التاسع عشر. وجرت ترجمة بعض أجزائه إلى عدة لغات، منها العبرية. وفيما بعد، جعل منه قادة المستوطنين الصهاينة في فلسطين مرجعهم التاريخي، فأقدموا على تسمية العديد من مدارسهم باسم صاحبه. يفسر ساند هذا التأثير الكاسح بنجاح غريتز في صياغة "رواية موحدة (...) أحدثت استمرارية تاريخية" كانت نتيجتها اختراع شعب يهودي[37].

عند وفاة غريتز في 1891، تعهد المؤرخ الأوكراني سيمون دوبنوف بمواصلة عمله، لكن كتابه الذي صدرت أجزاؤه تباعا بين 1901 و1921 حمل عنوانا يشير إلى تجاوز ما توصل إليه غريتز من الناحية النظرية إذ سماه تاريخ الشعب - العالم. خلافا للآخرين لم ينظر دوبنوف إلى اليهود على أنهم جماعات دينية متناثرة وإنما على أنهم "جسم قومي حي"، ذو أصل تاريخي وحيد تعود بدايته إلى ما يزيد على 2.000عاما ق. م. وهم يشكلون "شعبا عالميا" على أساس الثقافة الروحية المتوارثة جيلا عن جيل منذ ذلك الوقت. فإذا كان جوستو غريتز يحملان نظرة إلى التاريخ تنطلق من ثقافة ألمانيا في طور التوحيد، كان دوبنوف يحمل نظرة الإمبراطورية الروسية في طور التحلل. بالنسبة لهذا المؤرخ، لا العرق ولا اللغة ولا الأرض تعتبر عوامل حاسمة في تكوين الأمم عبر التاريخ، وكان يرى أن تهجير كتل يهودية إلى فلسطين لإنشاء دولة خاصة بهم أمر غير ممكن وغير مرغوب فيه، محبذا عنه السعي إلى استحداث نوع من الحكم الذاتي حيثما توجد تلك الجماعات. إلا أنه يكون مع ذلك قد قدم للحركة الصهيونية قيد الإنشاء خدمة ثمينة جدا. فعن طريق دفاعه عن دعوى تحويل "الإيمان الديني إلى أداة لتعريف الهوية القومية" وفر السند الإيديولوجي لتجاوز العقبة العملية المتمثلة في اعتراض قسم من القيادات الدينية لليهود عبر العالم على مشروع إقامة دولة - أمة على النمط الغربي، وبالتالي لبناء

36 - Ibid., p. 105.

37 - Ibid., p. 106-107.

تحالف بين النخب غير المتدينة والنخب المتدينة. كما يكون دوبنوف قد قدم أساسا لما عرف بعد إنشاء إسرائيل " تقليد البحث بالفأس والمجرفة"، الهادف إلى تأكيد القصص التوراتية وبالنتيجة حق " شعب إسرائيل " في ملكية " أرض إسرائيل"[38].

أما سالو ويتماير بارون، فهو مؤرخ هاجر من أوربا الشرقية إلى نيويورك في 1926، حيث نشر كتابه "تاريخ إسرائيل" عام 1937 ثم أعاد طبعه فيها عام 1952 وأصبح أول حائز على كرسي التاريخ اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية. مثله مثل سابقيه، لم يكن بارون "صهيونيا صريحا". وكان سقفه لا يتجاوز فكرة إقامة نوع من السيادة لليهود على أنفسهم، كما أنه ينظر إلى تاريخ هؤلاء بحسب المشهد الذي كانت عليه نيويورك، بصفتها أهم ملاذ لليهود الوافدين من أوربا الشرقية. فكان بالتالي لا يعير أهمية كبيرة للأرض كمكون للأمة مقارنة بأهمية القومية "الإثنية" التي اعتبرها العامل الموحد لليهود منذ أن خرجوا من مصر[39].

انتقد إسحاق باير، الأستاذ بالجامعة العبرية في القدس، وجهة نظر بارون بشدة، معتبرا أنه كان عليه أن يقرأ تاريخ اليهود قراءة "عضوية" ليتعرف عليهم، بدلا من الانطلاق من الوضع الذي كان عليه في المهجر الأمريكي. وكان هو نفسه قد أكد بحزم في كتابه جالوت (المنفى)، الصادر في 1936: وأنهى" أورد التوراة قصة انتخاب شعب الله وتقدمه نحو النضج وبرر حقه في سكن أرض الميعاد، أرض إسرائيل، وحدد موقعه في تاريخ الأمم. "وأنهى باير كتابه بإعلان مبادئ يقول عنه ساند أنه أدى دورا حاسما في تشكيل الوعي التاريخي للأجيال التالية من اليهود الإسرائيليين. فقد كان يعتبر ذهاب اليهود إلى المنفى خروجا عن النظام الذي أقامه الله ووضعا غير طبيعي يتوجب إعادته إلى نصابه، وبما أنهم يكونون" "وحدة قومية بمستوى أعلى بكثير من مستوى الوحدة القومية للشعوب الأخرى، من الضروري أن يسترجعوا وحدتهم الواقعية ". كما أنه كان يعتبر"الوعي القومي اليهودي" أصل الوعي القومي في أوربا وليس العكس، الخ. باختصار، كان يرى أن على اليهود أن يعودوا إلى "جذورهم" لأن الأصل هو الذي يحدد جوهرهم وليس التاريخ.

إن الدور الحاسم الذي أداه إعلان مبادئ باير تجلى، منذ صدور كتابه عام 1936، في إنشاء قسمين للتاريخ بالجامعة العبرية مستقلين تماما بعضهما عن بعض : "قسم تاريخ شعب إسرائيل وعلم اجتماع اليهود" من جهة، و"قسم

38 – Ibid., p. 131–135.

39 – Ibid., p.140.

التاريخ" من جهة أخرى، وهو إجراء صار قاعدة متبعة في كافة الجامعات الإسرائيلية للتأكيد على أن تاريخ الماضي اليهودي يدرس مفصولا عن تاريخ "المشركين". كما تجلى ذلك الدور في قيام باير، بمساعدة أستاذ التاريخ اليهودي بالجامعة المذكورة، بن زيور دينور، بوضع ضوابط التحكم في ميدان البحث وإن آلت إلى دينور، بصفة خاصة،مهمة القيام بهندسة تعليم التاريخ على نفس المبادئ في المنظومة التربوية الإسرائيلية بعد توليه وزارتها عام 1951[40].

كان لدينور في الواقع نشاطات متنوعة، من بينها مشاركته في الحلقة التوراتية الدائمة التي كانت تجتمع بمنزل أول رئيس للحكومة، دافيد بن غوريون. كان الأخير قد أدرك في وقت مبكر الفائدة السياسية من استعمال التوراة وتقديم إسرائيل على أنها مملكة الهيكل الثالث. فالحلقة المذكورة كانت تضم مؤرخين مختصين ومفسرين للتوراة إلى جانب بعض الساسة المهتمين بالبحث. وأخذ ذلك الأمر أبعادا عملية ملموسة عندما قام الموظفون مثلا خلال الخمسينات بإحلال أسماء توراتية محل الأسماء التي كانوا يحملونها من قبل. ثم كان الدور على السكان العاديين، وبالنتيجة تم محو الأسماء العائلية التي كانت تدل على مواقع الشتات. وتمت كذلك عبرنة أسماء المستوطنات الجديدة لمحو الاسم العربي، من جهة، وللقفز الذهني على مرحلة المنفى التي يعتبرون أن إنشاء دولة إسرائيل يضع حدا لها، من جهة أخرى.

هذه الصورة المنسجمة للماضي، التي بناها أولئك المؤرخون وأخذت منظومة التعليم في إسرائيل على الخصوص تبثها على نطاق جماهيري، جرى تعزيزها بواسطة علم الآثار. وبالرغم من أن التنقيب ما فتئ يظهر تناقضا هنا وتناقضا هناك بين المادة المكتشفة من ناحية، ونصوص الكتاب المقدس من ناحية أخرى، إلا أنه جرى اعتبار النصوص هي الحاسمة، بما أنها كانت تعد هي المنطلق وهي السبب في القيام بالحفريات، وجرى بالتالي إخفاء نتائج الاكتشافات الأثرية عن الجمهور العريض طيلة عقدين أو أكثر. من جهة أخرى، وخلافا للقانون الدولي الذي يحظر مثل هذا النشاط في الأراضي الخاضعة للاحتلال، قامت إسرائيل بمد نطاق التنقيب إلى الضفة الغربية لنهر الأردن بعد احتلالها عام 1967، ولم تتردد بالطبع في الاستيلاء على المواد الأثرية المكتشفة فيها بدعوى كونها تقع في "الوطن العتيق".

غير أن اندلاع الانتفاضة الفلسطينية عام 1987 أجبرت عددا متزايدا من الباحثين – من بينهم شلومو ساند – على طرح تساؤلات وإبداء شكوك حول مدى شرعية

40 – Ibid, p.145 –146.

تلك الصورة الراسخة في أذهانهم كما في أذهان غالبية اليهود الإسرائيليين. إن تلك الأساطير المنسوجة حول " الأصل القديم لشعب استثنائي " قد تحولت، بعد أن أدت دورها خلال عملية تجسيد المشروع الصهيوني الأصلي، إلى وقود "لسياسة هوياتية مركبة للغاية ولاستعمار إقليمي يتطلب تبريرا ذاتيا مستمرا"[41].

بعد أن تساءل عن الكتاب المقدس/الإنجيل وخلص إلى اقتراح قراءته "لا كرواية كفيلة بتلقيننا معارف عن الفترة التي تتناولها وإنما كخطاب ديني تربوي هائل"، ينتقل ساند إلى تحليل مسألة " اختراع المنفى". فبين أن المؤرخين المذكورين أعلاه - غريتسو دوبنون وبارون وكذلك المؤرخين الصهيونيين الصرحاء - لا يربطون بين هدم المعبد عام 70 وبين فكرة طرد اليهود من وطنهم، بينما اخترع باير مع دينور فكرة "المنفى بلا طرد" إثر الفتح العربي في القرن السابع (أي 600 عاما بعد المعبد الثاني). بالنسبة لدينور بوجه خاص، افتقد الملاك أراضيهم فقط على إثر "الغارات المتواصلة لشعوب الصحراء على أراضيهم وانصهارها مع العناصر الأجنبية (السورية - الآرامية) التي تحتلها وإخضاع الزراعة للغزاة الجدد وسلب اليهود أراضيهم". يعلق ساند متسائلا: "هل قام العرب حقا بسياسة استيطان الأراضي؟ أين اختفى مئات الألوف من المزارعين المنزوعة أملاكهم؟ هل حصلوا على أراضي أخرى في بلدان أخرى ؟ (...) "ثم يجيب بأن الاختفاء يعود إلى تحول عدد كبير منهم إلى المسيحية وإن كانت النخب اليهودية التقليدية والكتابات التاريخية الصهيونية، على السواء، تفضل تجاهل الأمر إن لم تصفه بالخيانة. كما أن الفتح الإسلامي لم يؤد "بأي حال من الأحوال إلى تحويل التركيبة السكانية تحويلا عميقا أو تبديل شعب بشعب. وإذ استقر قسم من الفاتحين فإن موقفهم تميز بالتسامح مع المعتقدات التوحيدية الأخرى"، فضلا عن انتقال القسم الأكبر من الجيش الإسلامي إلى جبهات قتالية أخرى. في هذا المضمار، من المحتمل أن يكون عدد كبير من اليهود والمسيحيين تحول إلى الإسلام، ليس بالإكراه وإنما لنظرتهم إلى المسلمين كمخلصين من الاضطهاد المتواصل لليهود في ظل الإمبراطورية البيزنطية، من جهة، وتفاديا لفقدان الأراضي أو للحصول على الإعفاء من الضرائب، من جهة ثانية. غير أنه جرى وضع حد للبحث في هذا الاتجاه الإدماج يبعد اندلاع انتفاضة 1936 الفلسطينية، خوفا مما قد يترتب عليه من واجب منح حقوق تاريخية زائدة"للسكان الأصليين". وفضلا عن ذلك، أظهر ذلك البحث مشكلا جديدا لم يجدوا له حلا إلا بعد عدة سنوات: كيف تفسير "العودة" ؟ بوقوع عمليات طرد متتالية من البلدان الأوربية بصورة عامة،

41 - Ibid, p. 172.

ما أدى إلى تغير المعنى الديني لزمن المنفى تغيرا أساسيا[42].

التغير المشار إليه لم يحدث صدفة، بل حدث نتيجة للتطور التاريخي الذي وقع على مستوى الجماعات اليهودية الموجودة خارج فلسطين. بصفتها أقليات دينية، دأبت الجماعات اليهودية المبعثرة عبر العالم على مراعاة مطلبين محددين: تفادي القيام بالتبشير خوفا من الدين السائد حيثما وجدت، وتفادي الاضمحلال لصالح هذا الدين السائد، في نفس الوقت. لكن الالتزام بذلك الموقف لم يكف لوقاية تلك الأقليات من تأثير تيارات العلمنة الأوربية، وبالتالي من زعزعة مكانة الحاخامات والأجهزة الدينية اليهودية بصفة عامة. وأصبح أغلب اليهود "إسرائيليين"، بمعنى أنهم فرنسيون أو بريطانيون أو ألمانيون، الخ.، على دين موسى، وبهذه الصفة، قاموا بالدفاع عن الدولة القومية التي يحملون جنسيتها، بما في ذلك عبر اشتراكهم في الحروب التي تخوضها هذه الدولة بغض النظر عن الدين الذي يكون عليه الجنود على الجبهة الأخرى. ولا يستثنى من ذلك أنصار الصهيونية بين هؤلاء وأولئك، والذين ظلت نسبتهم في الواقع ضئيلة للغاية طيلة سنوات 1914–1897.

لقد غرفت الصهيونية بملء اليدين في الإيديولوجيات القومية السائدة في أوربا من أجل التكفل بمهمة شبه مستحيلة تتمثل في صهر عدد لا يحصى من الوحدات "الإثنية" والمجموعات الثقافية واللغات المختلفة. فجاء تبنيها للتوراة ليكون كتابا "للذاكرة" لكل تلك الوحدات وجاءت الفكرة اليهودية–المسيحية عن الشتات الأبدي وفكرة "العرق هو كل شيء" (أي وحدة الدم) والتي بموجبها يكون "علم الأحياء وحده وليس اللغة ولا الثقافة قادرا على تفسير تكوين الأمم، ومن دونه لا يمكن فهم أصل وجود أمة يهودية اختلط أعضاؤها بثقافات شعبية متنوعة ويتحدثون لغات مختلفة. "وإذا كان تيودور هرزل مؤسس الحركة الصهيونية قد أبدى ترددا إزاء هذه النظرية العنصرية طالما لم تخدم أهدافه السياسية الآنية، فإن ساعده الأيمن، ماكس نورداو، اقتنع بها في حين جعل منها أرثر روبين أساس الاستيطان الصهيوني في فلسطين2 وذلك خلافا لميثاق الأمم المتحدة التي نشأت الدولة بموجبه وخلافا كذلك لـ "إعلان الاستقلال " الذي نص على تكفلها بالتنمية لفائدة جميع السكان وعلى مبادئ الحرية والعدالة والسلام دون تمييز عقيدي وعرقي وجنسي، الخ.

المراجع

1.أفي شليم. التاريخ الجديد والنكبة، جريدة حق العودة، العدد، 30 نيسان 2009.

42 – Ibid., p. 173 – 264.

أنظر: http://www.badil.org/en/haq-alawda/item/47

2.مجهول: إسرائيل: هل هي دولة قابلة للحياة ؟ مجلة صامد الاقتصادي، العدد 32، أيلول 1981.

3. Agudat – Israël, http://www.akadem.org/médias/documents/-agudat-israel-doc2PDF
4. Bajoit, Guy. Sionisme et impérialisme, in actes du Symposium international sur le sionisme et le racisme 1976, Tripoli, Le Sycomore, Paris, 1979.
5. Berque, J., Couland, J., Duclot, L-J., Hadamard, J., Rodinson, M., Les Palestiniens et la crise israélo-arabe, textes et documents du Groupe de Recherches et d'Action pour le Règlement du Problème Palestinien (G.R.A.P.P.), 1967-1973, Editions sociales, Paris, 1974.
6. Couland, Jacques, Israël et le Proche- Orient arabe, Editions Sociales, Paris, 1969.
7. Garaudy, Roger (1983). L'affaire Israël. Le sionisme politique. Dossier, PAPYRUS éditions, Paris.
8. Lazare, Bernard (1894). L'antisémitisme, son histoire et ses causes, EditionsL. Chailley.
9. NetureiKarta International. Juifs réunis contre le sionisme, le sujet Palestinien, Série B – Pamphlet n° 3. http//://www.nkusa.org.2003.
10. Pappe, Ilan. Israël, un Etat dans le déni, Naqd, Revue d'études et de critique sociale, n° 21, automne hiver 2005.
11. Ravenel, Bernard. Dans la revue des temps modernes : le basculement conceptuel de Maxime Rodinson, publié le vendredi 28 septembre 2007, http ; //www3.france-palestine.org/article 6719.html.
12. Remond, René, L'anticléricalisme en France de 1815 à nos jours. Nouvelle édition augmentée et mise à jour, Editions Complexes, Bruxelles, 1985.
13. Rodinson, Maxime (mai 1967). Israël fait colonial?, revue des temps modernes.
14. Sand, Shlomo (2008). Comment le peuple juif fut inventé. De la Bible au sionisme, traduit de l'hébreu par Sivan Cohen-Wiesenfeld et Levana Frenk, Fayard,(Prix Aujourd'hui 2009).

15. Vidal, Dominique (1948). La Palestine des archives aux cartes, mardi 19 février 2008, association France Palestine Solidarité, http://www.france-palestine.org/

16. Weinstock, Nathan (1969). Le sionisme contre Israel, Maspero, Paris,du même,

17. Weinstock, Nathan (1970) Le mouvement révolutionnaire arabe, Maspero, Paris.